يقظة الحضارة

بقلم نزار الزين

هل تعب الانسان من وجوده ، وغارت تباشير الامل في أفقه ، فاضحى على شفير هاوية ودماريلوّح بحتفه وحتف اقرانه ، ويحل مشكلته كما حلها شمشون حين زلزل دعائم المعبد على رأسه ورأس اعدائه ؟

أو ليس من الغريب ان يُفصم العالم الى شقين لا يفصلها الا اسطورة سلم ؟ اقول اسطورة لان هذا السلم قائم على تهديد ووعيد وعلى حشد لقوى التدمير . انها اسطورة جميلة قد تكون مسك الختام لهذا العالم التعب من وجوده !

ان القنبلة الذرية والهيدروجينية وما ابتكر الانسان وسيبتكر من ادوات تدمير ، كل هذه تعلن بوضوح عن خطر داهم وعن مشكلة اصيلة .

ليس من شأني التنبؤ بما سيحدث او بما هو آت ، ويكفيني انني لا اؤمن بالمصير لاحول وجهي مستطلعاً نحو الماضي ومتخذاً موقف المحلل النفسي الذي يقف من مشكلة الانسان موقف المفسر لاصل العلة وموقف الشارح للقواعد التي رست عليها شخصيته .

وحضارة الانسان المهددة تدفعنا للعودة الى المنشأ ، الى هذه اليقظة الاولى التي خرجت بالانسان الى حقل الابتكار والى حياة (العمران) على حد قول ابن خلدون .

وهنا يلح علينا السؤال : كيف تمت اول خطوة نحو الحضارة ؟ وما هو المحرك الذي دفع بهذه الخطى نحو التقدم والابتكار ؟

هناك ولا شك عامل المكان جغرافياً كان او بيئياً ، وهناك الى جانبه عامل الزمان مناط المعجزة ! او صُروف الظروف ، وقبل هذا او ذاك استعداد الجنس وقابلية الجماعة . قد يكون احد هذه العوامل هو صاحب الاثر الفعال ، وقد تكون هذه العوامل مجتمعة هي التي انبتت الحضارة . ولا شك ان التفسير الثاني يعتمد الحذر ويتحصن امام النقد ، ولكنه يفقد في تعميمه قوة الوضوح وجاذبية التعليل الموحد .

للمكان ولا شك اثره ولكنه لا يكفي وحده للتعليل ، فهناك امكنة متشابهة من حيث البيئة الطبيعية والجغرافية لم تنبت كلها حضارات [1] ، وهناك ظروف متشابهة وأحيان مترادفة لم تظهر الحضارات في آن واحد ، اما عامل الجنس فانه عاجز عن تعليل الامر ما دام ان فريقاً من جنس ساد حضارة وظل سائر الجنس قابعاً في بدائيته . ولكننا مع هذا لن ننكر ضرورة هذه العناصر الثلاثة : البيئة والظرف والجنس كاسس لازمة لكل حضارة ، او اذا شئنا كاطار ضروري لها . وعلى كل فان قولنا : ان هذه العناصر مجتمعة هي التي تكون الحضارة ، نوع من التهرب والتعمية ، واكتفاء بالسطحية أمام مزالق التعمق .

يأخذ طوينبي على اشبنجلر انه ، مع وصفه البديع لتطور الحضارات ؛ لم يتعرض للسؤال عن يقظة الحضارة وكيف دبت في حركتها الاولى ودرجت في حداثتها نحو التقدم والغنى .

هذا السؤال اساسي لفهم منشأ الحضارات ولادراك طبيعتها . ويأخذ طوينبي على عاتقه البحث عن الجواب المرضي ، فيستعرض الاسس التي ألمحنا اليها ، من بيئة وجنس ، فيرى أنها لا تفي بالمطلوب ، ولا تبدو كسبب مباشر ينقل الحضارة من سباتها العميق (يَن) Yin الى حركتها الفوارة (ينج) Yang [1] . هنا يلجأ العالم التاريخي الى الاسطورة فيجد فيها المعين الذي يستخرج منه التفسير ويقول : « في كل مرة يبتدىء التاريخ بحالة تامة من السكون (ين) ففوست انما هو بشر من العلم .. وآدم وحواء كمال في البراءة والسعادة .. والشمس في كون الفلكي نجم كامل يقوم بدوره دون تردد او توقف . هنا يكون السكون على درجة من النضوج تمكن من الانتقال الى الحركة . فمن الذي يدفعه في هذه الخطوة ؟ والتغير في حالة عرفناها بانها كاملة ، لا يحدث الا بمثير او بدافع مصدره الخارج . فاذا تصورنا هذه الحالة بانها توازن فيزيائي ، كان علينا افتراض تدخل نجم ، واذا تصورناها على انها اطمئنان نفساني او (نرفانا) كان علينا ادخال عامل آخر للمشهد . كنا قد يحمل النفس على ان تنظر من جديد الى تفكيرها وتوحي اليه بالشك ، او كعدو يحملها على تجديد شعورها تاركاً لها الحزن والاسى والخوف والاشمئزاز . وهذا هو بالفعل دور الحية في

(١) راجع Toynbee طوينبي « مختصر التاريخ » .

(١) من الصينية : ين بمعنى السكون وينج بمعنى الحركة .

الهبوط وابليس في الخلق والشيطان في فوست». وعلى هذا فلا بد من تحدٍ خارجي يحمل الانسان على المشاكسة وعلى شق طريق حضارته . فالمبدأ الذي يعتمده طوينبي للرد على السؤال الذي فات اشبنجلر هو (التحدي – المشاكسة)

قبل ان نعلق على هذا الرأي علينا ان نتصور الانسان في حالته الاولى ونفترض الموقف الاولي الذي اندفع لتشييد الحضارة . هناك ثلاثة احتمالات يمكننا تصورها :

مغامرة حملت قبضة من الناس على الهجرة واكتشاف اراض جديدة . واذا اخذنا بان منبت الجنس البشري كان في منطقة حارة تمتد من الصحراء الكبرى مارة بمصر والجزيرة العربية وجنوب الهند ، فاننا نتصور ان هذه القبضة قد رحلت من هذه البيئة في فصل الصيف ساعية وراء امكنة لطيفة الجو معتدلة الحرارة . ولكنها لا تلبث حتى يحل عليها صقيع الشتاء فتصارع وتناضل وتبتكر الادوات اللازمة لبقائها، وبهذا ترسم اول خطوة حضارية .

وهناك تصور آخر يجعلنا نفترض ان الظروف الجغرافية قد تغيرت وحملت الانسان على ابتكار الاساليب لتدعيم بقائه والمناضلة ضد زواله .

اما التصور الاخير فهو ان هناك انشقاقاً قد حدث بين الجماعات البدائية فحمل قسماً منها على النزوح الى بيئة جديدة وبالتالي حمله على ابتكار الاسباب التي يمكن ان يقاوم بها الطبيعة وملابسات البيئة الجديدة .

والتصور الاول غني بالخيال خصوصاً اذا جنحنا الى تتبع المغامرين في هجرتهم وتصورهم في بيئتهم الجديدة ، ولكن علامة الاستفهام تتبعنا نحن الآخرين سائلة عن الدافع لهذه المغامرة وكيف نبتت في نفوس هؤلاء الناس ? واذا تأملنا التصور الثاني لا نفهم لماذا تابع الانسان ابتكاراته لخلق حضارة مادام ان غرضه كان التكيف حسب التغيير الجغرافي الذي تم. ولا يمكننا ان نتصور الحضارة على انها تكيف متواصل من الانسان تجاه تقلبات جغرافية – اما التصور الثالث ففيه معين للاستنتاجات النفسية والاجتماعية، وهذا ما فعله فرويد حين تصور ان بدء الحضارة كان في النزاع بين الابناء والاب على الام مما حمل الابناء على قتل ابيهم وعلى حيازة امهم وهنا نبتت في نفوسهم فكرة المعبود والممنوع والشعور بالخطيئة ومركب أوديب وما الى ذلك من الاستنتاجات [1]. ولكن

(١) للايضاح راجع كتاب فرويد المعبود والممنوع Tatem et Talum.

صدر حديثاً :

دروب

للاستاذ ميخائيل نعيمه

أحدث ما خطه يراع ناسك الشخروب في الادب والفلسفة والقصة .

دار العلم للملايين

هذا التفسير لا يفترض وجود العامل الخارجي الذي ينقلنا من السكون الى الحركة على حد تعبير طوينبي . فالمسألة امر داخلي بحت لا يفسر نشوء الحضارة ويمكننا ان نجده في قبائل بدائية تعيش على بدائيتها حتى الان . وعلى هذا لا بد لنا من تصور عامل خارجي هز الانسان وجعله يستفيق من سباته الأولي . ولا بد ان هذا العامل الخارجي كان من العظم والعنف بحيث انه يتجاوز الحدود الطبيعية . انه عامل خارق بالنسبة للانسان الاولي والا فانه سيكون كالعامل الجغرافي في التصور الثاني لا يلبث الانسان ان يتكيف بموجب اثره وتأثيره ويقف في مراقي حضارته . ولا يغيب عن ذهننا ان الانسان الاول كان شديد الخيال يطرح على العوامل التي تأتيه من الخارج صفة الالوهية والطبيعة الخارقة : فالشمس لم تكن في تخيله نجماً ضخماً ملتهباً تدور حوله السيارات ، بل كان إلـهاً يغضب ويرضى يمنح الغضب ويحرق الزرع ، وكذلك كانت كل قوى الطبيعة متميزة بمثل هذه الصفات الخارقة .

الى هذا الحد من التصور والافتراض يمكننا الاخذ برأي طوينبي فنقول : ان هناك عاملاً خارجياً خارقاً للطبيعة تحدى الانسان في سكون وحمله على المشاكسة والنضال ودفعه في معارج الحضارة .

ولكن هذا ان صح كأساس لمبدأ عام، فانه لا يفسر سير الحضارة وتطورها ولا يلقي ضوءاً على صانع الحضارة نفسه اي على الانسان المبتكر .

ان الانسان الذي صمد للتحدي وناضل ، كان يحمل في نفسه بذور دافع حضاري ما لبث ان تحرك ودفع به في مسالك الابتكار والثقافة والاختراع والثقافة .

كان في البدء شعور بالخطر آت من التحدي ، وتبع هـذا الشعور حالة من عدم الامان فحواها الخوف والرهبة ، ولما كان المتحدي خارقاً للطبيعة ليس له حدود معلومة فـان هذا الخوف وتلك الرهبة كانا ممزوجين بالقلق . ومن هذا القلق نقف على مفترق الطريق : اما زوال واما وجود ، اما فنـاء الذات او توكيد الذات ، اما سلب واما ايجاب . وفي هذا الموقف القلق يشعر الانسان بذاتـــه بصورة جديدة وحتى بصورة عنيفة ويمكن مقارنة ذلك بحـالة فيزيولوجية : فنحن نشعر بوجود معدتنا او امعائنا او كليتينا حين تزداد الحموضة او ينتابنا مغص او نوبة رمل مثلاً ، وكذلك الحـال حين نقف قلقين على الصراط بين عدم ووجود . هنا تنبت الفردية وتشعر الذات بوجودها الخاص . وهنا نضع يدنا على الدافع الحضاري الذي ندعوه بتوكيد الذات او تحقيقهـــا . ففي الانسان استعداد للابتكار والخلق لا بد من عامل خـارجي يهزه ، فاما ان يشله القلق واما ان يندفع معـبراً لتحقيق ذاته وتوكيدها .

وتوكيد الذات هذا يتجـــاوز من بعيد تأمين حاجات الجسد ومتطلبات العيش : انه المدى القيمي الذي يخوض فيه الفرد تجاه الغيب وتجاه المجتمع . ويتجاوز كذلك مفهوم غريزة البقاء : فكم من فرد يضحّي بنفسه للذود عن هدف وللدفاع عن قيمة ، وكم من فرد يترك الحياة مختاراً حين يسلك طريق الانتحار .

وتوكيد الذات هـذا الذي حركه الخطر وانطلق من القلق يفسر لنا تطور الحضارة ، فهو يتمثل بالابتكار الفردي والخلق الذاتي الذي تتردد اصداؤه في المجتمع فيدفع به في سلم الارتقاء . واذا تصورنا توكيد الذات في البدء كنضال من الفرد تجاه الغيب فاننا نتصوره بعد الارتقـــاء الحضاري كنضال من الفرد تجاه المجتمع على وجـه العموم . كل فرد يسعى الى توكيد ذاته وبهـــذا كانت الحضارة وبهذا نفسر السلوك الانساني .

والانسان لا يؤكد ذاته في الخلاء ، بل يندفع في ذلك التوكيد تجاه الغير سواء أكان ذلك الغير هو الغيب او المجتمع ، وصفة هذا التوكيد هي حصول الفرد على قيمة : قيمة خارقة او قيمة اجتماعية يعتز بها الغير . ولكن هذا الفرد الذي يؤكد ذاته عليه ان يقر بقيمة الغير حين يؤكدون ذواتهم ، ولا بدله من الحد من توكيده او من نفي ذاته احياناً ، والا فان العلاقة مع الغير لا يمكن ان تتم . وحتى لو صدقنا ما يقوله هوبز بان الانسان ذئب بالنسبة لاخيه الانسان ، فان للذئاب شريعة وبين الذئاب نوع من العلاقة . ولا بد اذن من قرن توكيد الذات بنفي الذات لقيام العلاقة مع الغـــير . وفي هذا يصح قول اسبينوزا « في كل نفي توكيد » والعكس صحيح .

واذا كان الامر كذلك فـان توكيد الذات يتأثر بالقيم الراهنة في المجتمع من ناحية ، ويتـــأثر من ناحية ثانية بنوع العلاقات الاجتماعية ، كما انه يتلون بلون الدوافع الغريزية الفردية حيناً وغيابها حيناً آخر .

فاذا نظرنا من كوة الابتكار والخلق تتبدى لنا الفردية ، واذا تطلعنا الى المجتمع عموماً تذوب هذه الفردية بين قانون ونظام وأوضاع وتصبح كماً في كل او عدداً في احصاء .

واستناداً الى هذا المفهوم الاخير يمكننـا ان نلمس أزمة الانسان الحـــالي . فبعد ظهور الآلة وبعد القفزات العلمية الحديثـة اصبحت الفردية تعيش في جو اقتصادي واجتماعي معقد ، واخذت الحدود والالتزامات تلتهم مجالها الحركي وتضطرها الى مشاركة الغير في اعمال جماعية . ازاء هذه الوضعية نشأ اتجاهان متضادان : اتجـاه يرمي الى نفي الذات الفردية لتوكيد المجموع الذي تقوم مشكلته برمتهـا على الاقتصاد ، ونعلم ان هذا الاتجاه هو الاتجاه الماركسي . امـا الاتجاه الثاني ، وهو الاتجاه الوجودي ، فانه يتخذ الطريق العكسي مؤكداً الفردية الى ابعد الحدود محملها اثقال التعقيد الراهن ويمنحها الاختيار الحر فينتهي الى شعور بالقلق لا مناص منه وينفي ما عدا ذلك سابغاً عليه صفة العدم . ففي الاتجاه الاول هروب بمشاكل الفرد وبذاتـــه الى ذات كلية او مادية وفي الاتجاه الثاني توتر لمشاكل الفرد وذاته مما يدفع الى قلق حائر لا يندرج في عمل منتظم .

والتطرف في نفي الذات او في توكيدها يؤدي الى موقف متطرف ينحرف بالحضارة عن سيرها الطبيعي .

ولا بد من قرن التوكيد بالنفي بالقدر الذي يدعو اليه الابتكار الفردي من جهـــة والعلاقة مع الغير من جهة ثانية .

اما القنبلة الهيدروجينية ومـــا يشاع عن اخواتها من كوبلتية وآزوتية فانها تنفي الذات الفردية كما تنفي الذات الكلية (بمفهوم وجودي طبعاً) ولا ادري ماذا تؤكد !

باريس **نزار عبد الباسط الزين**